العرب
الثلاثاء 2020/06/23
السنة 43 العدد 11740

تلازم الجماعات والمخابرات في وثائق الإسلام السياسي

علاقة قائمة على خدمة مصالح الغرب على حساب الدول المسلمة

حماة مصالح الغرب باسم الدين

في المؤلفات السياسية البريطانية والأميركية التي صدرت خلال العقدين الأخيرين، وتناولت خبايا السياسات في الشرق الأوسط، هناك الكثير المثير على مستوى التفاصيل، وما يعزز قناعة الدارسين بحقيقة ارتباط جماعات "الإسلام السياسي" بالمخابرات البريطانية، منذ نشأتها الأولى، خلال الثلث الأول من القرن العشرين في المشرق العربي والإسلامي، ثم ارتباطها بالمخابرات المركزية الأميركية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

لا يوجد سياق لحركة "الإسلام السياسي" خارج لعبة الغرب، وخططه الأشد حرصا على منع وحدة الأمم واستقلال السياسات واستحواذ الشعوب على ثرواتها.

الكثير مما انكشف وينكشف، سواء من المراسلات السرية والوثائق المفرج عنها، يؤكد أن جماعات "الإسلام السياسي" لم ولن تكترث لمصائر أوطانها وتماسك شعوبها، ولا حتى لفكرة الاستقلال الوطني ولا لقيم الشفافية والاستقامة والتقوى. وهنا، يمكن رصد تجارب هذه الظاهرة في العديد من البلدان من خلال المجموعات التي عبرت عنها في التاريخ الحديث!

كانت الهند مهد ظهور أول تجليات "الإسلام السياسي" من خلال التواطؤ المشيخي في ثمانينات القرن التاسع عشر مع المصالح الاستخبارية البريطانية، التي اعتمدت سياسة "فرِّق تَسُد". فقد أرادت بريطانيا استباق محاولات الوطنيين الهنود لتحقيق إجماع هندي متخط للأديان الكثيرة، والذهاب إلى وحدة وطنية لطرد المستعمر، فركزت على المربي والمصلح الاجتماعي سيد أحمد خان، الذي دعا في العام 1886 إلى ما سماه "المؤتمر المحمدي لعموم الهند" الذي انبثقت عنه "حركة أليغار" نسبة إلى المدينة التي حدث فيها المؤتمر في ولاية "أتر براديش" شمالي البلاد.

وكان التوجه الذي أوعز به البريطانيون للشيخ أحمد سيد، هو الفصل بين مصالح المسلمين وحركة التحرر الوطني الهندية، بذريعة أن لا طائل من مقاومة بريطانيا، وأن المسلمين لا يملكون القوة التي تؤهلهم للمشاركة مع الهندوس، وأن مصلحتهم تكمن في التعليم ومد الجسور مع الدولة المستعمرة. وما إن أعلن البريطانيون عن تشكيل مجالس تشريعية ودوائر انتخابية، حتى طالب منتسبو حركة أليغار بأن يكون لهم سياق سياسي وكياني مواز وخاص، وكان من جراء هذا السلوك بدء مراكمة عناصر التطرف الهندوسي، الذي لم يكن موجودا في أيام الأباطرة المغول المسلمين بدءا من تيمور لنك إلى "بهادر شاه". وكان الناشطون في إطار تلك الحركة، وهم من كبار الملاك المسلمين، سببا في انقسام مجتمعي في الهند على أساس الموقف من الحركة الوطنية للبلاد. فقد كتبت حرم اللورد مينتو نائب الملك والحاكم العام في الهند، في مذكراتها، أن زوجها استطاع في العشرية الأولى من القرن العشرين، أن يكسب ولاء النخبة المسلمة، ما أدى إلى "منع انضمام 62 مليون هندي مسلم إلى صفوف المعارضة الداعية إلى الفتنة"!

في ذلك السياق، تطور شكل التعبير عن توجهات "الإسلام السياسي" من خلال تطوير منهجية حركة أليغار. ففي أواخر العام 1906، خرجت للمرة الأولى فكرة "الرابطة الإسلامية" وكان خروجها بهذا الاسم تحديدا، الذي تكرر في غير مكان في ما بعد. وقد بدا واضحا بجلاء، أن الفكرة بريطانية والتسمية والتوجهات من صياغة المخابرات البريطانية، ولأن تلك "الرابطة" في العام 1906 كانت تجربة أو "بروفة" يجري إنضاجها واختبار جدواها في تلك البلاد، ثم اعتمادها في العديد من البلدان، مع اختلافات طفيفة، حسب ثقافة كل بلد ولغته وأوضاعه الوطنية، وأيضا حسب طواعية النخبة المسلمة التي يراد استخدامها ورعايتها وظروفها. هنا، ليست هناك أي غرابة، في أن يكون المبلغ النقدي الأول، الذي تلقاه حسن البنا من هيئة قناة السويس، بعد تأسيس الجماعة بسنتين، فالهيئة بريطانية موصولة بالقوات البريطانية وباستخباراتها!

عندما ننظر إلى "الرابطة الإسلامية" التي أطلقتها حركة أليغار (وهذه، بالمناسبة، لا تزال مبجلة في أدبيات الإسلام السياسي العربي) نرى أن البند الأول من نظامها أو لائحتها، يحث على تشجيع مشاعر الولاء للحكومة البريطانية بين المسلمين في الهند. وقد امتدح المسؤولون البريطانيون تلك الرابطة، واستكملوا فكرتهم عن الأنموذج الأمثل، الذي حرصوا على نقله إلى إندونيسيا وإيران ومصر وسوريا وشمال أفريقيا، مع نماذج خاصة لبلدان أخرى كالعراق وللناشطين في القارة الأوروبية.

ولكي يبدأ الاختبار العمليات للخطط، في العام 1939 دخلت "الرابطة الإسلامية" ممثلة بزعيمها محمد علي جناح، مع البريطانيين في عملية شق الهند لأهداف استراتيجية بريطانية بحتة. فقد أوعز نائب الملك البريطاني والحاكم آنذاك فيكتور هوب (ماركيوس) لمحمد علي جناح بأن يعارض مطلب حزب المؤتمر الهندي بالاستقلال التام عن بريطانيا، واقترح عليه أن يبحث عن بديل. وكانت بريطانيا ترى أن الهند، في حال وجدت نفسها، بتعددها العرقي والثقافي غير مستعدة لأن تصبح دولة مستقلة داخل رابطة "الكومنولث" فعندئذ "يكون التقسيم هو طريق نجاة بريطانيا من المأزق".

> الغرب يزن في كل واقعة الربح والخسارة، فإن غلب الربح مرت فترة التعاون بهيجة، وإن رجحت كفة الخسارة، يبدأ صراع الأفاعي

في تلك الأثناء، كانت حركة الاستقلال الوطني بقيادة غاندي، تضغط بقوة، وقد استطاعت بزخمها الأخلاقي استيعاب نخبة من الجيل الجديد من المسلمين، الذين اكتشفوا حقيقة ارتباط "الرابطة الإسلامية" بالمستعمر البريطاني. فقد التحق رجال كثر، من النخبة المسلمة، تعلموا في معاهد "الرابطة" لكنهم خرجوا من تحت مظلتها، ومن بين هؤلاء التربوي والمفكر ذاكر حسين، الرئيس الثالث لجمهورية الهند المستقلة.

تقدم حزب المؤتمر الهندي في نضاله الاستقلالي واستطاع كسب مساحات كبيرة من التأييد الشعبي الداخلي والدولي الخارجي، وأدرك البريطانيون أن الاستقلاليين الهنود لا يريدون إبقاء بلادهم ضمن "الكومنولث" ولن يسلموا باستمرار أي نفوذ سياسي وعسكري لبريطانيا في بلادهم. من هنا رمت بريطانيا بكل ثقلها لصالح انفصال الجزء الشمالي الغربي من البلاد، وإنشاء دولة إسلامية مستقلة. وكانت الدوافع استراتيجية بحتة، بحكم تجاور هذه الدولة مع الاتحاد السوفياتي والصين وأفغانستان وإيران. وفي تلك الأثناء، كان الفيلد مارشال البريطاني "فيسكاونت ليفل" نائب الملك والحاكم العام في الهند، الذي حل في العام 1943 هو شريك زعيم "الرابطة الإسلامية" في رسم التوجه الاستراتيجي للدولة الجديدة!

على مر المراحل، تبدلت أهداف البريطانيين ومن ثم الأميركيين، في إطار استراتيجية الهيمنة على الثروات، وتكريس النفوذ. وانتقلت خطط استخدام "الإسلام السياسي" إلى المنطقة العربية، بشفاعة شروحات عقدية لم يعرفها تاريخ المسلمين. ففي ذلك السياق، ترجمت كتابات المودودي التي قدمت التعليل السياسي - الاجتماعي لهذا التوجه، ثم قدم حسن البنا التعليل الفقهي الأول، الذي استلهمه من كتابات المجدد اللبناني رشيد الرضا، وذلك قبل أن يظهر سيد قطب، كمفكر "إسلام سياسي" استجد على الدين أو حتى على الإيمان، فذهب إلى الحث على الكوارث، بذريعة أن المجتمع جاهلي والإيمان ركام، وسخر قلمه للإفتئات على المسلمين وتمزيق النسيج الاجتماعي وتكريس منهجية التنازع الأهلي المفتوح.

ومن المفارقات أن ظاهرة الترابط بين جماعات "الإسلام السياسي" ومخابرات بريطانيا والولايات المتحدة، قد أكدت مجموعة ثوابت، من بينها أن الغرب وهذا التيار الإسلامي بكل تنظيماته، صديقان لدودان، بمعنى أن أحدهما لا يطيق ثقافة الآخر، وفي الوقت نفسه لا يحتمل الابتعاد عنه أو مخاصمته. ففي تجربة كل بلد، هناك الكثير من الحقائق التي تؤكد انتهازية الطرفين. وفي سياقات التساند الميداني أثناء الأحداث، كانت فرضيات الخصومة تظل قائمة. والغرب كان يزن في كل واقعة الربح والخسارة، فإن غلب الربح مرت فترة التعاون بهيجة وسلسة، وإن رجحت كفة الخسارة، يبدأ نوع من صراع الأفاعي. لكن الثابت أن جماعات "الإسلام السياسي" تخالف المستعمرين وأهدافهم على المستوى التكتيكي وفي إطار الثرثرات لا السياسات. أما على المستوى الاستراتيجي، فإن هذه الجماعات ولا تزال وستبقى، في موضع الرضا الاستعماري، ولهذا السبب تحديدا فإن جماعة الإخوان محصنة لا تُصنف بما لا يسرها، في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وغيرها، ولهذا السبب، ترى أميركا ضالتها في ليبيا، عند "الجماعات" ومتى؟ أثناء ولاية دونالد ترامب الأكثر جنونا في التطرف!

من أين نأتي للإسلاميين بأنظمة استبدادية كي يجدّدوا رصيدهم النضالي

حكيم مرزوقي

ما لا يعلمه الإسلاميون هو أن المظلومية التاريخية التي اشتغلوا عليها طويلا، هي رصيد قابل للنفاد، ويصعب إنعاشه أو تجديده أو الاقتراض عليه. أصبحوا في حاجة إلى محاكمات واعتقالات ومغالطات جديدة كي يكسبوا بعض التعاطف الشعبي الذي لم يعد ممكنا بعد أن انكشف أمرهم (من أين نأتي لهم بأنظمة قمعية جديدة بعد الانفراج الديمقراطي؟)، ذلك أن وضعهم أصبح أشبه بقصة الراعي الكذاب.. فمن هبّ لمناصرتهم في الأمس، لم يعد يصدق استغاثاتهم اليوم، ويحملها على محمل الجد.

تآكل رصيد الإسلاميين على مستوى القواعد الشعبية جاء نتيجة زيف وعودهم الانتخابية في البلدان التي تمكنوا من اعتلاء سدة الحكم فيها سابقا كمصر وتونس، أو حتى اليوم، كتركيا الأردوغانية التي تتلهى بالنفخ في كير استنهاض أمجاد العثمانيين الزائفة، وتلهي شعبها عن مشاكل داخلية أهمها خنق الحريات في بلد يقف على صفيح لم يبرد منذ يوليو 2016 على إثر المحاولة الانقلابية وما تلاها من موجة اعتقالات لم تتوقف إلى الآن.

أمام هذه الخسارات الداخلية، يراهن الإسلاميون على ما يمكن تحصيله من دعم دولي غير مباشر، يتمثل في بعض الضغوط من هنا وهناك، باسم حقوق الإنسان أو حتى الاستفادة من توازن المصالح الإقليمية والدولية، ولكن هيهات.. فالأمور لم تعد كما في السابق وسط تنام مجتمعي وحقوقي داخلي، بالإضافة إلى أن شعوب العالمين العربي والإسلامي لم تعد "مغفلة"، وباتت تعلم أن حماية العقيدة الدينية هي آخر اهتمامات الإسلام السياسي.

وعلى ضوء ما تقدم، فإن أي دعم إعلامي واضح وصريح للأحزاب الإسلامية من طرف الغرب الأميركي والأوروبي، هو بمثابة دق المسمار الأخير في نعش الإسلاميين، ذلك أن بوصلة تقييم الشعوب العربية والإسلامية للأحزاب الدينية، هي مدى قربها أو ابتعادها من سياسات المصالح الدولية.

وفي المقابل، لم يعد شعار معاداة أميركا وأوروبا مجديا لدى الإسلاميين كما هو السائد في العقود الثلاثة الماضية، ولن يكون هذا الشعار ضارا ولا نافعا في بورصة البروباغندا السياسية. ولم يعد نظام طهران مثلا، يقنع شعبه بفكرة "أميركا شيطان أكبر" بعد أن علم الإيرانيون أن صفقات مشبوهة تعقد في الخفاء مع " شياطين كثيرة".. لا شيطان رجيم ولا ملاك رحيم في لعبة السياسة الدولية.. وهو أمر الشعوب الإسلامية ولم تعد الحيلة تنطلي على أحد.

هذا "الوعي التحصيني" بدأ يبرز بقوة في السنوات الأخيرة، وترك الإسلاميين في "الأوف سايت" كما يقال في لغة كرة القدم، ذلك أن النتيجة يقررها المتفرج على عين الميدان، ودون انتظار صافرة حكم منحاز أو لاعب محتج.

لم تعد ورقة معاداة الغرب الكافر لدى الإسلاميين ذات رصيد شعبي، ولا كذلك ورقة استرضاء النظم الديمقراطية والمنظمات الحقوقية.. لقد صارت الجماهير العريضة – رغم غوغائية بعضها – هي من يقيّم ويتثبت الخيط الأبيض من الأسود بعيدا عن المزايدات السياسية.

لا يختلف اثنان في أن الأحزاب الإسلامية باتت في وضع لا تحسد عليه، سواء كانت في السلطة أو مشاركة فيها أو حتى خارجها، ذلك أن وعيا جديدا بدأ يتشكل خارج التعبئة الجماهيرية والحملات الغوغائية المضللة.

لسان حال المجتمعات التي لم تعد مغلوبة على أمرها في البلدان العربية والإسلامية، أصبح يخاطب الإسلام السياسي بقوله "جرّبناك جرّبناك.. من أعلاك فوق جراحنا ليراك؟".

انتهى زمن التعاطف مع جماعات لم تعد لديها حجة الإقناع ولا مبررات التعاطف معها، صار صوت العقل والمنطق أعلى من ذي قبل، وانتهت حقبة التقييم من خلال مقولة "عدو عدوي هو صديقي وصديق عدوي هو عدوي".

الناس صاروا يقصدون بيوت الصلاة لأجل الصلاة لا أكثر ولا أقل، وقد لا يقصدونها بدافع الحرص على التوقي من فايروسات كثيرة أخرى في عصر كورونا.

> الأنظمة المتسلطة لمّعت صورة هؤلاء من حيث تدري .أو لا تدري. وذلك بسبب حملات الاعتقال وإقامة المحاكمات

"حبل الكذب قصير" كما تقول العامة. الآن وقد قطع الإسلاميون الحبال بمن كانوا يظنونهم أطواق نجدة ونجاة، لم تعد المجتمعات تلدغ من جحر مرتين فها هي موجة تمجيدهم وتقديرهم في تونس عام 2011 قد انحصرت بل اضمحلت إلى أدنى مستوياتها، وفق المثل الشعبي القائل "من يجرّب المجرّب، عقله مخرّب".

كانت جماعة الإخوان، ومنذ ستينات القرن الماضي، أشبه بالبعبع الذي يمكن له أن يهدد الأنظمة الفاسدة، وتحكى عنهم "الأساطير النضالية" في المنافي والسجون. وكانت الفئات المراهقة والشبابية تتبادل منشوراتهم القادمة من المخابئ وديار المهجر ثم جاء اليوم الذي قدموا فيه إلينا مبجلين على أجنحة الحرية الواعدة كمطمح شعبي في ما سمي بالربيع العربي.. وحلت الكارثة حين أسدى الناس لهم بأصواتهم.

هل هؤلاء هم الذين كنا نقرأ بياناتهم سرا، ونوقع العرائض المطالبة بحقهم في حياة سياسية تليق بالمجتمعات المتقدمة؟

الأنظمة المتسلطة في العالمين العربي والإسلامي كانت قد لمّعت صورة هؤلاء من حيث تدري – أو لا تدري – وذلك بسبب حملات الاعتقال وإقامة المحاكمات، أما الآن، وقد بدأنا نتعايش نسبيا، مع المنظومات الديمقراطية كما هو الحال في تونس، على سبيل المثال – وربما الحصر – فهل علينا أن نأتي للإسلاميين بأنظمة قمعية كي نقوي رصيدهم أم نسكتهم مرة واحدة كما يقول بعض الغاضبين منهم في منطق يفيض ببعض الرعونة ويخلو من بعض الشجاعة؟

انتهى زمن المظلومية